وكانت الفكرة عينها عرضت لبعض قيادات المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي في النصف الاول من الاربعينات. غير ان هذا التوجّه، أي الارهاب، أُبعد كأسلوب في مواجهة الاحتلال، على أساس انه يفضي الى الانتقام. وكلاهما يخرجان عن دائرة الهدف، الذي يجب ان تكون المسيرة اليه منظّمة، وان تكون القيادة قادرة على تحويل العنف الكامن الى قوة فعّالة ومعبّأة وسياسية. وفي غير هذا الحال، ينقلب العنف الكامن ضد الاحتلال الى فوضى وعفوية، وتضيع قدراته هدراً وهباء.

وثمّة رأي يقول ان امتلاك الانتفاضة بنادق يعني ان يلعب المنتفضون لعبة اسرائيل ذاتها التي ستمتلك، دائماً، بندقيتين ومدفعاً وطائرة، كلّما امتلك الفلسطينيون بندقية. فالولايات المتحدة جاهزة لأن تفعل ذلك بكرم وطيب خاطر. ويرى أهل هذا الرأي ان الدخول في هذه المبارزة يندرج في منطق السحق العسكري الذي تهوى اسرائيل ممارسته. وينتهون الى ان الصدور العارية للفتيان الفلسطينيين الذين يرمون الحجارة، لا تستطيع اسرائيل ان تجد لها ردّاً. وذلك هو الحل الوحيد، طويل المدى، الذي يمكن ان يُهير اسرائيل.

هذا الدرس وعته قيادة الانتفاضة، واستوعبت مغزاه، حين أبعدت العنف من عمليّاتها وتكتيكاتها، وتجنّبت ان يكون هدفها القضاء المادي على العدو في كل مواجهة معه. وأخذت بأسلوب معاوية بن أبي سفيان في تعامله مع الناس، يوم ان ضرب مثلاً بالشعرة التي تربطه بهم، فان هم شدّوا الشعرة أرخاها، وان هم أرخوها شدّها الى نفسه.

ودون ان نأخذ بهدف معاوية في حكمته هذه، نقول ان الانتفاضة، وقد اتخذت من المصابرة والمساجلة والانهاك واستنفاد القوى أسلوباً استراتيجياً في العمل، لم تستخدم سلاح العنف، أي سلاح القتل والاماتة، ولا هي لجأت الى أسلوب الاغتيال، وانما هي أقرب الى اللاعنف الايجابي، الذي يعبّر عن ارادته بالحركة، ولو أدت هذه الارادة المتحركة الى تحميل ابنائها القتل بالرصاص، والموت فداء، وتكسير العظام، وسعي العدو الى تدمير منجزات الشعب، وتاريخه، وهويّته.

وان أية مقارنة في مجال العمليات والتكتيك تجرى بين الانتفاضة وثورات التحرر الوطني الأخرى، كالثورتين الفيتنامية والجزائرية، لا تدخل في نطاق المنطق وطبيعة الأمور. ذلك اننا ـ كما أشرنا الى ذلك منذ قليل ـ تجاه خواص انفردت بها الانتفاضة، وتميّزت، حتى أصبح طابعها في العمليات والتكتيك مستقلاً، أو خاصاً بها دون غيرها.

ففي حين تلتقي الانتفاضة والثورتان، الفيتنامية والجزائرية، في دائرة الاستراتيجية العامة والأهداف، تختلف الانتفاضة عنهما في مجالات العمل الميداني. فاذا كانت الثورتان، الفيتنامية والجزائرية، مزجتا بين أساليب الحرب الثورية وعمل العصابات وأساليب عمل القوات النظامية، واستخدمت المجموعات المقاتلة، التي بلغت حيناً حدّ السريّة والكتيبة، وتوسّعتا في الاعمال القتالية ضمن خطة متكاملة للعمليات، بغية استنزاف قدرات العدو، مادياً ومعنوياً، في مرحلة زمنية طويلة، حتى يأتي الوقت الذي يفقد فيه الخصم حرية عمله العسكري والسياسي، فتنتقل المبادأة الى أيدي قوات الثورة، التي تصعّد عملياتها بتسارع وعنف يصلان بالحرب الثورية الى نهايتها الحاسمة؛ اذا فعلت الثورتان، الفيتنامية والجزائرية، ذلك، فان الانتفاضة الفلسطينية بدأت باعداد المجتمع الفلسطيني كلّه لينتفض معبّراً عن ارادته في التحرر والاستقلال، متسلّحاً بأسلوب يجعل العدو غير قادر على استخدام قواته المسلّحة، الّا ضمن حدود ضيّقة وتحت سقف محدّد.

واذا ما أردنا ان نقارن بين الانتفاضة، كأسلوب نضالي، وبين الأساليب التي استخدمتها